المبحث الثالث
ألب أرسلان (محمد) الأسد الشجاع

هو السلطان الكبير، الملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع ألب أرسلان، محمد بن السلطان جغر بيك داود ميكائيل بن سلجوق بن تُقاق بن سلجوق التركماني، الغُزِّي، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم [1]، ملك بعد عمه طغرل بك، وكان عادلاً سار في الناس سيرة حسنة، كريماً رحيماً، شفوقاً على الرعية رفيقاً على الفقراء، بارّا بأهله وأصحابه ومماليكه كثير الدعاء بدوام ما أنعم به عليه، كثير الصدقات يتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار، ولا يعرف في زمانه جناية ولا مصادرة، بل يقنع من الرّعايا بالخراج في قسطين، رفقاً بهم[2].

أولاً: اجتماع الكلمة عليه:

اعتمد ألب أرسلان في الوزارة على نظام الملك، وكان وزير صدق، يكرم العلماء والفقراء، ولما عصى الملك شهاب الدولة قُتُلمش، وخرج عن الطاعة، وطمع في أخذ الملك من ألب أرسلان وكان من بني عم طغرل بك، فجمع وحشد واحتفل له ألب أرسلان فقال له الوزير: أيها الملك، لا تخف فإني قد استخدمت لك جنداً ليلياً يدعون لك وينصرونك بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم، وهم العلماء والصلحاء، فطابت نفسه بذلك، فحين التقى مع قتلمش لم ينتظره أن كسره وقتل خلقاً من جنوده، وقُتل قتلمش في المعركة واجتمعت الكلمة على ألب أرسلان[3]، وعظم أمره، وخطب له على منابر العراق والعجم وخراسان ودانت له الأمم [4].

ثانياً: سماحه للسيدة زوجة طغرل بك وابنه الخليفة بالرجوع إلى بغداد:

ففي سنة 456هـ أذن ألب أرسلان للسيدة ابنة الخليفة في الرجوع إلى بغداد وأرسل معها بعض القضاة والأمراء، فدخلت بغداد في تجُّمل عظيم، وخرج الناس للنظر إليها، فدخلت ليلاً في أبهة عظيمة، ففرح الخليفة وأهلها بذلك وأمر الخليفة بالدعاء للملك ألب أرسلان على المنابر في الخطب فقيل في الدعاء: اللهم وأصلح السلطان المعظم عَضُدَ الدولة وتاج الملة ألب أرسلان أبا شجاع محمد بن داود وجلس الخليفة للناس جلوساً عاماً وبايعهم للملك ألب أرسلان وأرسل إليه بالخلع والتقليد مع الشريف نقيب العباسيين طراد بن محمد الزيني، وأبي محمد التميمي، وموفق الخادم، ولقب الوزير نظام الملك قوام الدين والدولة رضي أمير المؤمنين، وإنما كان يقال له قبل ذلك: خواجاً بزرك. وأرسل الملك ألب أرسلان بالهدايا والتحف النفيسة المفتخرة، واستقر أمره على بغداد وجميع بلاد العراق [5].

ثالثاً: جهاده في سبيل الله:

(1) سير إعلام النبلاء (414/18).
(2) البداية والنهاية (39/16).
(3) المصدر نفسه (793/15).
(4) سير أعلام النبلاء (415/18).
(5) البداية والنهاية (794/16).

كان ألب أرسلان كعمه طغرل بك - قائداً ماهراً مقداماً وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية[1]، لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسع خارجي، وعندما اطمئن على استتباب الأمن وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية " العبيدية " في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق [2].

وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة 414هـ وأخبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي العبيدي سنة 462هـ[3]، ثم أرسل قائد الترك أتسنسر بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس بدلاً من الفاطميين العبيديين، ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس[4]، وفي سنة 462هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان، وإسقاط خطبة مصر - العبيدي، (وترك الأذان بحي على خير العمل) - فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له: إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار [5]، وكان حريصاً على إقامة العدل في رعاياه وحفظ أموالهم وأعراضهم، بلغه أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض التجار، فصلبه فارتدع سائر المماليك به، خوفاً من سطوته، وكتب إليه بعض السُّعاة في نظام الملك، فاستدعاه وقال له: إن كان هذا صحيحاً فهذَّب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن لم يكن صحيحاً فاغفر لهم زلتهم بمُهمَّ يشغلهم عن السعاية بالناس[6]، وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولمّا اشتهر بين الملوك بحُسن سيرته، ومحافظته على عهوده أذعنوا له بالطاعة

(1) قيام الدولة العثمانية ص 20.
(2) المصدر نفسه ص 20.
(3) السلاطين في المشرق العربي د. عصام محمد ص 25.
(4) مرآة الزمان لسبط بن الجوزي ص 161.
(5) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 68، البداية والنهاية (229/16).
(6) البداية والنهاية (39/16).

والموافقة بعد الامتناع وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقاصي الشام [1].

ومن الدروس مما مضى، أهمية دراسة التاريخ للقادة السياسيين وزعماء الأمة، فمن خلاله يتعرفون على سنن الله وعوامل نهوض الدول وأسباب سقوطها، فقد كان ألب أرسلان مهتما بدارسة تاريخ الأمم.

رابعاً: حملة السلطان ألب أرسلان على الشام وضم حلب:

وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدفي السلاجقة وهما: التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية وطرد الفاطميين في بلاد الشام والحلول مكانهم ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة الفاطميين.

والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحية العسكرية والسياسية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ أن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدّد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن قواعده الخلفية [2]، واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان أرتاح عام 460هـ بعد أن حاصرها خمسة أشهر [3]، ونهض الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس ليوقف تقدم المغيرين، ومنعهم من التوغل أكثر في عمق الأراضي البيزنطية، وقاد حملتين عسكريتين ضد الأجزاء الشمالية لبلاد الشام بين عام 461هـ - وعام 462هـ فهاجم منطقة حلب، عقدة المواصلات التجارية والعسكرية بين العراق وأرمينية والأناضول وبلاد الشام، واصطدمت قواته بقوات محمود بن نصر المرداسي وبني كلاب، وابن حسان الطائي ومن معهم من جموع العرب وانتصر عليهم [4]، إلا أن الإمبراطور انسحب من المنطقة على عجل دون أن يستثمر انتصاره، بعد ورود أخبار عن توغل قوات تركية بقيادة الأفشين في عمق الأراضي البيزنطية، وفتحها مدينة عمورية، وأنها بصدد التوجه نحو القسطنطينية، كما أن نفاد المؤن كان سبباً آخر دفعه إلى العودة إلى بلاده [5]. وكان السلطان ألب أرسلان ينتظر فرصة سانحة ليحقق حلمه بضم بلاد الشام ومصر إلى الأملاك السلجوقية، وأتاح له النزاع الذي حصل بين أركان الحكم في مصر من أجل السيطرة والتسلط على المستنصر الفاطمي هذه الفرصة، كان ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمداني أحد أبرز القادة في القاهرة، وقد انتصر على تحالف ضمَّ الوزير ابن أبي كدية وألدكوز قائد عسكر الأتراك وذلك في عام 462هـ، وتمادى في تخطيطه وقرّر القضاء على الدولة الفاطمية وإقامة

(1) الكامل لابن الأثير (253/6).
(2) في التاريخ الشامي، شاكر مصطفى (131/2).
(3) زبدة حلب من تاريخ حلب (256/1).
(4) المصدر نفسه (257/1).
(5) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص113.

الدعوة العباسية، فأرسل أبا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب إلى السلطان السلجوقي يطلب منه أن يرسل جيشاً إلى مصر، يساعده في تحقيق هدفه وفور تسلمه الدعوة جهَّز ألب أرسلان جيشاً كبيراً وخرج على رأسه من خراسان متوجهاً إلى بلاد الشام لإخضاعها لسيطرة السلاجقة، ومن ثمَّ متابعة زحفه إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية وضمَّ هذا البلد إلى السلطنة السلجوقية، لكن تحركه كان بطيئاً بسبب ما صادفه من عقبات كانت أولاها في الرها الواقعة تحت الحكم البيزنطي، فحاصرها في عام 463هـ وقاوم الرهاويون الحصار ببسالة بقيادة باسيل بن أسار الذي عيَّنه الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس حاكماً على المدينة، وقطع السلاجقة أشجار الحدائق وطمروا الخنادق بجانب الأسوار الشرقية كي يعبروا عليها، وقذفوا المدينة بالمجانيق، وشرع النقابون في حفر فجوات في السور، ولكن دون جدوى، واستعصت المدينة على السلطان ألب أرسلان واضطر إلى التفاهم مع سكانها بعد نيف وثلاثين يوماً من الحصار المتواصل ثم تابع طريقه إلى حلب[1]؛ لضمها حتى يمنع أي محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب، غير أن قسماً من جيشه تقاعس عن المضي معه بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر أن يتابع زحفه بمن بقي معه من الجيش وعددهم أربعة آلاف مقاتل، فعبر نهر الفرات 463هـ ودخل أراضي الإمارة وقدم له جميع أمراء الجزيرة الولاء أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، ونصر بن مروان أمير ميا فارقين، وابن وثاب أمير حرّان، بالإضافة إلى أمراء الترك والديلم [2].

1- حصار حلب وإخضاعها صلحاً للدولة السلجوقية:

تقاعس محمود بن نصر أمير حلب، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه معارضة الشيعة في حلب، وربما أدرك أنه سوف يفقد استقلاله إذا تجاوب مع مطالب السلطان السلجوقي [3]، فأرسل إليه القاضي أبا جعفر محمد بن البخاري يدعوه للقدوم إليه لتقديم الولاء والطاعة ودوس بساطه أسوة بسائر أمراء الجزيرة، وفتح أبواب حلب لاستقباله[4]، ولكن محموداً رفض الدعوة بتحريض من ابن خان، وآثر الاعتصام بحلب والدفاع عنها، واستنفر الرجال من جميع أنحاء بلاد الشام، وتأهب لمقاومة الحصار الذي سوف يفرضه الجيش السلجوقي على المدينة، ويبدو أنه اطمأن إلى أن ولاءه للعباسيين، وللسلطان السلجوقي، وارتداء خلع الخليفة التي أرسلت إليه في عام 462هـ، كافيان لحمايته من هجوم السلطان، لكنه فوجئ بوصوله إلى حلب في 463هـ وضربه الحصار عليها، واتخذ السلطان من الفنيدق[5] مركزاً لقيادته: وكانت الخيام والعساكر من حلب إلى نقرة بني أسد، إلى عزاز إلى الأثارب، متقاربة بعضها من بعض، ولم يتعرض أحد من العسكر لمال أحد، ولا سُبيت حرمة، ولا قاتل، ولم يأخذ عليقة تبن من فلاح إلا بثمنه واستمر الحصار مدة شهرين ويومين ولم يجر قتال غير يوم واحد، وكان يقول لأتباعه: أخشى أن أفتح

(1) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 114.
(2) المصدر نفسه ص 114.
(3) المصدر نفسه ص 114.
(4) المصدر نفسه ص 115.
(5) الفنيدق: من أعمال حلب، ويعرف الآن بتل السلطان.

هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم [1]، ومهما يكن من أمر، فقد فشل السلطان في اقتحام المدينة، ولعل مرد ذلك يعود إلى شدة المقاومة ومتانة الأسوار، وإشراك محمود بن نصر جميع القبائل العربية في الدفاع عنها، بالإضافة إلى طبيعة تكوين الجيش السلجوقي الذي يعتمد على الفرسان الخفاف، والمعروف أن عمليات الحصار تتطلب جنوداً من المشاة وهو ما افتقده الجيش السلجوقي ولم تتوقف المفاوضات خلال أيام الحصار للوصول إلى حل لكن دون جدوى بسبب التصلب في المواقف، واضطر السلطان أخيراً إلى فك الحصار عن المدينة، إلا أنه خشي على سمعته بعد إخفاقه في اقتحام الرها، وأخذ حلب مما سينعكس سلباً على دولته الناشئة وبخاصة بعد ورود أنباء عن ظهور الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس في أرمينية وهو عازم على مهاجمة خراسان[2]؛ لذلك لجأ إلى السياسة لتفريق الكلابين وإضعاف موقف محمود بن نصر، فاستدعى جميع أمراء بني كلاب ليختر أميراً منهم يعينّه على حلب ويفوَّضه في السعي للاستيلاء على المدينة وانتزاعها من يد محمود بن نصر، على أن يتفرغ هو لمواجهة الخطر البيزنطي[3]، فلبَّى الأمراء دعوة السلطان، وامتثلوا لأمره، ويدل هذا على أن التنازع كان متفشياً بين العشائر الكلابية، وأن محموداً لم يمكَّن من جمع شمل القبيلة تحت رايته وعندما علم محمود بهذا التحول، خشي على سلطانه في حلب وبخاصة - أن البلد قد أشرف على الفتح - [4]، كما أن موقف ألب أرسلان في إدارته للأحداث يدل على حنكة سياسية حقق من خلالها أهدافه بأقصر السبل وأقل التكاليف.

2- تحرك محمود بن نصر أمير حلب للمصالحة:

عندما علم محمود بهذا التحول، خشي على سلطته في حلب فتحرك بسرعة باتجاه السلطان، وسعى إلى التوصل إلى مصالحة معه تحفظ ملكه وتفَّوت الفرصة على خصومه من الأمراء الكلابيين [5]، ومهما يكن من أمر، فقد خرج محمود بن نصر من حلب متخفياً بزي الأتراك في ليلة الأول من شعبان 463هـ بصحبة والدته منيعة بنت وثاب النميري، وتوجه إلى معسكر السلطان، فرحَّب به هذا الأخير، وجرت مفاوضات بين الرجلين أسفرت عما يلي:

أ- يخرج محمود بن نصر في اليوم التالي علنا ليزور معسكر السلطان ويدوس بساطه، ويقدم فروض الولاء والطاعة له.

ب- يوافق السلطان على بقاء محمود أميراً على حلب، على أن يكون تابعاً له ويدعو للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي [6].

وفعلاً خرج محمود في اليوم التالي من حلب، وتوجّه إلى معسكر السلطان وحمل معه مفاتيح البلد، واصطحب معه والدته، فاستقبلهما السلطان، ورحب بهما وأكرمهما وأحسن إليهما، وأعلن عن

(1) زبدة حلب في تاريخ حلب (262/1، 263).
(2) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 115.
(3) المصدر نفسه ص 115.
(4) المصدر نفسه ص 115.
(5) زبدة حلب في تاريخ حلب (263/1، 264).
(6) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 116.

بقاء محمود أميراً على حلب، وكتب لـه توقيعاً بذلك [1]، وقد أضحى بموجبه تابعا فعلياً ورسمياً للسلطان، ومتولياً من قبله وبتوقيعه، وليس أميراً حاكماً بقوته يستطيع في كل لحظة نقض الولاء [2].

3- التوغل السلجوقي في جنوبي بلاد الشام: غادر السلطان ألب أرسلان المنطقة بعد ذلك، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر للقتال هناك، وترك بعض عسكره وأتباعه بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي وكان معه إخوته، جاولي والمأمون وفزلو وشكلي، وإذن لهم بالاصطدام بالفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام، وكان القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار قد استبدَّ بحكم طرابلس وخلع طاعة أمير الجيوش بدر الجمالي، وضَّم مدينة جبيل الواقعة على الساحل اللبناني إلى نفوذه، واضعاً بذلك النواة الأولى لقيام إمارة بني عمار المستقلة [3]، وحتى يدعم موقفه في طرابلس تقرّب من السلاجقة، فأرسل إليه السلطان ألب أرسلان، قبل أن يغادر المنطقة قوة عسكرية بقيادة أحد كتابه هو جابر بن سقلاب الموصلي [4]، لم يوضَّح المؤرخون ما تقَّرَر بين السلطان ألب أرسلان وأمير طرابلس، لكن يغلب على الظن أن معاهدة عدم اعتداء عقدت بين الطرفين يسمح بموجبها لجماعة من الأتراك بالإقامة في أعمال طرابلس [5]، وتنفيذاً لأوامر السلطان قاد محمود بن نصر وإيتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوباً لمهاجمة دمشق وانتزعاها من أيدي الفاطميين وذلك في 464هـ وتوقفا في بعلبك ليخططا لحملتيهما، وعلم محمود بن نصر وهو في بعلبك بأن عمه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين في أنطاكية، وأحرق قسماً من معرة مصرين [6]، فاضطر للعودة إلى مقر إمارته للدفاع عنها، واشتبك مع البيزنطيين في عدة معارك، فانهزم أمامهم، وعندما وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجههم استعان بأتسز وإخوته، وكانوا في الجنوب يحاولون انتزاع فلسطين من أيدي الفاطميين، فلبوا دعوته، وقدموا إلى حلب، وتمكّن محمود بن نصر بفضل مساعدتهم من:

* صَد البيزنطيين، ووقف أعمالهم ضد أراضيه.
* استعاد الرحبة من مسلم بن قريش في عام 465هـ.

وبعد أن قضى منهم ما أراد، وأمن جانب البيزنطيين، طلب منهم أن يغادروا حلب، وأغراهم بالمال والخيل، فغادروا إلى الجنوب. ويبدو أنهم تركوا قسماً منهم في خدمته يبلغ ألف فارس بقيادة أحمد شاه، بدليل أنه عندما أغار البيزنطيون على أراضي حلب عام 466هـ، صدّهم محمود بن نصر بمساعدة الأتراك الموجودين في حلب كما فتح قلعة السن الواقعة تحت الحكم البيزنطي وضمَّها إلى أملاكه [7]. وتوجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة إلى دمشق بهدف ضمَّها، فضربوا عليها

(1) المصدر نفسه ص 116.
(2) المصدر نفسه ص 116.
(3) تاريخ طرابلس، تدمري ص 351.
(4) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص 282.
(5) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 118.
(6) معرة المصرين: بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها.
(7) تاريخ دمشق ابن القلانسي ص 166 - 168.

حصاراً مركزاً، وأغاروا على أعمالها، وقطعوا الميرة عنها، ورعوا زرعها، ومع ذلك فقد فشلوا في اقتحامها[1]، فغادروها إلى فلسطين، فضُّموا الرملة، وبيت المقدس، بعد حصار، وطردوا منها الحامية الفاطمية وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين، وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي، وألغى أتسز الدعوة للمستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وأرسل إلى بغداد يخبر بما حقَّقه في بلاد الشام [2].

(1) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 119.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ السلاجقة في الشام ص 119.

معارك حاسمة في تاريخ الإسلام

خامساً: موقعة ملاذ كرد سنة 463هـ:

قام ألب أرسلان بحملة كبيرة ضد الأقاليم النصرانية المجاورة لحدود دولته، وقاد جيشه نحو جنوب أذربيجان واتجه غرباً لفتح بلاد الكُرج والمناطق المطلةَّ على بلاد البيزنطيين وكان سكان الكرج يكثرون من الغارة على أذربيجان فأصبحوا مصدر قلق لسكان المنطقة، وانضم إليه وهو في مدينة مرند في أذربيجان أحد أمراء التركمان ويدعى طغتكين، وكان دائم الغارة على تلك المنطقة، عارفاً بمسالكها واجتاز الجيش السلجوقي نهر الرس [1]، في طريقه إلى بلاد الكُرج، وفصل ألب أرسلان أثناء زحفه، قوة عسكرية بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك هاجمت حصوناً ومدناً بيزنطية منها حصن سُرماري[2] ومدينة مريم نشين الحصينة وفتحها واستمرت فتوحاته الكبيرة في الأراضي الأرمينية ويبدو أن ملك الكُرج هاله التوغل السلجوقي في عمق المناطق الأرمينية فهادن ألب أرسلان وصالحه على دفع الجزية ونتيجة لهذا التوغل السلجوقي أضحى الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للعبور إلى الأناضول بعد أن سيطروا على قلب أرمينية، فأغاروا على المناطق الحدودية واستولوا على دروب الأمانوس في عام 459هـ، وهاجموا قيصرية حاضرة كبادوكية في العالم التالي [3] جرى كل ذلك ولم يبذل الإمبراطور البيزنطي جهداً كبيراً لمقاومة هذه الغارات، مما شجعّهم على التوغل في عمق الأناضول فوصلوا إلى نيكسار [4]، وعمورية[5] في عام 461هـ وإلى قونية في العام التالي، وإلى خونية القريبة من ساحل بحر إيجة في عام 463هـ، شكل فتح السلاجقة لبلاد الكرج والقسم الأكبر من أرمينية تحدياً لبيزنطة وبخاصة بعد أن أدرك الإمبراطور البيزنطي، أن ألب أرسلان يصبغ غزوه للبلاد بصبغة الجهاد الديني، وهو يطبع المناطق المفتوحة بالطابع الإسلامي، مما جعل نشوب الحرب بين المسلمين والبيزنطيين أمر لا مفر منه[6].

1- تآمر ملك الروم على الإسلام: خرج ملك الروم (رومانوس) في جمع كبير من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية، حتى قدر ذلك الجمع بثلاثمائة ألف جندي [7]، أعدهم الإمبراطور لملاقاة السلطان السلجوقي، الذي ما إن علم باقتراب الروم ومن معهم حتى استعد للأمر واحتسب نفسه ومن معه، وكان في قلة من أصحابه لا تقارن بعدد الروم وأتباعه قيل: إنهم قرابة خمسة عشرة ألفاً [8]، ولم يكن لديه وقت لاستدعاء مدد من المناطق التابعة له وقال: قولته المشهورة: أنا أحتسب عند الله نفسي وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من

(1) الرس: نهر يخرج من قاليقلا ويمر بأران.
(2) سُرماري: قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط.
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص41، 42.
(4) نيكسار: إحدى مدن ولاية سيواس تقع شمال شرق تركيا.
(5) عمورية: مدينة في بلاد الروم.
(6) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 42.
(7) الفتوح الإسلامية عبر العصور للعمري ص197.
(8) مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص 40.

حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي، ويومي خير من أمسي [1]، وهجم بمن معه على مقدمة الأعداء وكان فيها عشرون ألفاً معظمهم من الروس، فأحرز المسلمون عليهم انتصاراً عظيماً وتمكنوا من أسر معظم قوادهم [2].

2- ثم أرسل السلطان ألب أرسلان المصالحة على ملك الروم: ثم أرسل السلطان ألب أرسلان من قبله وفداً إلى إمبراطور الروم وعرض عليه المصالحة ولكنه تكبر وطغى ولم يقبل العرض، [3]وقال: هيهات!! لا هدنة ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فُعل ببلاد الروم [4]، وجاء في رواية : لا هدنة إلا ببذل الري، فحمى السلطان وشاط [5]، فقال إمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي [6]: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين [7].

3- اندلاع المعركة وانتصار المسلمين:

أعد المسلمون العدة للمعركة الفاصلة واجتمع الجيشان يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 463هـ، فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع وقال لهم: نحن مع القوم تحت الناقص[8]وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر، فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة أو الغنيمة ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة فقالوا: مهما فعلت تبعناك فيه وأعناك عليه [9]، فبادر ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت وقال: إن قتلت فهذا كفني [10]، ثم وقع الزحف بين الطرفين ونزل السلطان ألب أرسلان عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وأظهر الخضوع والبكاء لله تعالى وأكثر من الدعاء ثم ركب وحمل على الأعداء، وصدق المسلمون القتال وصبروا وصابروا حتى زلزل الله الأعداء وقذف الرعب في قلوبهم، ونصر الله المسلمين عليهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم جموعاً كبيرة، كان على رأسهم ملك الروم نفسه الذي أسره أحد غلمان

(1) مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص 40.
(2) المنتظم (261/8).
(3) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص 198.
(4) المنتظم (361/8).
(5) سير أعلام النبلاء(415/18).
(6) الدولة العثمانية للصَّلاَّبي ص 30.
(7) سير أعلام النبلاء (413/18).
(8) يقصد بهذه العبارة قلة العدد.
(9) المنتظم (262/8) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص 199.
(10) الكامل في التاريخ نقلاً عن الفتوح الإسلامية ص 199.

المسلمين فأحضر ذليلاً إلى السلطان[1]، فقنعّه بالمِقرعة، وقال: ويلك ألم أبعث أطلب منك الهدنة؟ قال: دعني من التوبيخ. قال: ما كان عزمك لو ظفرت بي؟ قال: كل قبيح: قال: فما تؤمَّلُ وتُظُن بي؟ القتل أو تُشهّرني في بلادك، والثالثة بعيدة: العفو وقبول الفداء. قال: ما عزمت على غيرها، فاشترى نفسه بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار، وإطلاق كل أسير في بلاده، فخلع عليه، وبعث معه عدة وأعطاه نفقة توصله وأما الروم فبادروا وملّكوا آخر، فلما قرب أرمانوس شعر بزوال ملكه، فلبس الصوف، وترهب، ثم جمع ما وصلت يده إليه نحو ثلاثمائة ألف دينار، وبعث بها، واعتذر وقيل: إنه غلب على ثغور الأرمن [2].

لقد غزا ألب أرسلان بلاد الروم مرتين، وافتتح قلاعاً، وأرعب الملوك، ثم سار إلى أصبهان ومنها إلى كرمان وذهب إلى شيراز ثم عاد على خراسان، وكاد أن يتملك مصر [3].

4- نتائج ملاذكرد: 463هـ:

أ- تعتبر معركة " ملاذكرد " من المعارك الفاصلة في التاريخ ويسميها بعض المؤرخين باسم الملحمة الكبرى، وتعد أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وأصبحت الأراضي البيزنطية تحت رحمة السلاجقة وبذلك يكون السلاجقة قد تابعوا الجهاد الذي قام به المسلمون ضد الروم [4].

ب- لم يكن هذا الانتصار انتصاراً عسكرياً فقط بل كان انتصاراً دعوياً للإسلام، إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرد وضّموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على 400 ألف كم، فَعَمّ الإسلام تلك الجهات منُذ ذلك الوقت ولم يكن دخلها أبداً من قبل[5]، فإن هذه المرحلة من تاريخ الإسلام كانت مرحلة امتداد وتوسع أيضاً ولم تكن مرحلة جمود وتوقف كما يتصور كثير من الناس ممن يقرؤون التاريخ الإسلامي على عجالة ويتوقفون عند نهاية العصر العباسي الأول ويجملون العصر الثاني بكلمات تدل على الضعف والتفكك والتوقف [6]، وخصوصاً إذا ذهبنا إلى المغرب والأندلس حيث دولة المرابطين السنية التابعة للخلافة العباسية، فبعد ست سنوات من معركة ملاذكرد أي في عام 469هـ استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة إمبراطورية غانا " كومبي صالح " وأن يفرضوا الإسلام على جميع البلاد وقد وافق ملك غانا " تنكامنين " على الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وقد دخل كثير من الشعب في الإسلام أيضاً، وبذا تكون ديار الإسلام قد امتدت في إفريقية على مساحة جديدة تقرب من نصف مليون كيلو متر مربع وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي في الهند وفتحت مساحات واسعة من

(1) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص 199.
(2) سير أعلام النبلاء (416/18).
(3) المصدر نفسه ص (416/18).
(4) الحروب الصليبية، المقدمات السياسية، عليه الجنزوري ص511، 212.
(5) التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، محمود شاكر (360/6).
(6) المصدر نفسه (360/6).

شمال في تلك البلاد[1].

ت- تعتبر هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي المسلمين [2]، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك ونتائجها، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى، التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، وكانت بذلك لبنة اجتثت من بناء الدولة البيزنطية فمهدت لسقوطها، فعندما فقدت الإمبراطورية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى، أصبحت القسطنطينية رأساً حُرم من الجسد الذي يسنده وبذلك غدت آسيا الصغرى برمتها مكشوفة أمام السلاجقة، وهكذا بضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية التي طالما فصلت بين الإسلام والمسيحية 400 ميل إلى الغرب ولأول مرة استطاع الأتراك السلاجقة أن يحرزوا مكاناً ثابتاً في تلك البقاع [3]، ومنُذ ذلك الحين فقد الرؤساء والجنود شجاعتهم، ولم تحرز الإمبراطورية نصراً على الإطلاق [4].

ث- ومن نتائج ملاذكرد أن قضى السلاجقة على التحالف البيزنطي الفاطمي، واضطرت بينزنطة إلى مصالحتهم؛ أما أرمينية فقد زالت منها الإدارة البيزنطية بعد أن هجرها سكانها وخضعت المدن الأرمينية للسلاجقة [5]، كما انهار نظام الدفاع البيزنطي الذي تولاه أمراء التخوم، وبذلك تعرض نظام الثغور لضربة قاسية لا سيما وأن بيزنطة لجأت بعد المعركة إلى إنزال حاميات من الجند المرتزقة في أرمينية وأثرها، ولم تحاول الاستعانة بالسكان الأصليين[6].

ج- تُعد معركة ملاذكرد أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وجاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية النصرانية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو المسلمين، وتراءى للصليبين فيما بعد أن البيزنطيين فقدوا - على أرض المعركة - ما اتخذوه من لقب حماة العالم النصراني، وبررت هذه المعركة ما جرى من تدخل الغرب الأوروبي، لأن بيزنطة لم يعد بوسعها حماية العالم النصراني في الشرق وأصبحت عاجزة عن أن تُلقي بجيش في المعركة لأعوام عديدة [7]. كما أن هذه المعركة مهدت الطريق ويسرت السبل للقضاء على سيطرة البيزنطيين على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى، مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها، بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين[8].

ح- يعد الأتراك أكثر العناصر العسكرية الأجنبية إفادة من الأوضاع المضطربة التي سادت المجتمع

(1) التاريخ الإسلامي الدولة العباسية، محمود شاكر (360/6).
(2) العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية، دكتور كمال بن مارس ص 62.
(3) المجتمع الإسلامي، أحمد رمضان ص 49، 50.
(4) العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية ص 62.
(5) المصدر نفسه 63.
(6) المصدر نفسه 63.
(7) الحروب الصليبية رنسيمان (110/1).
(8) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 51.

البيزنطي والوضع السياسي بعد معركة ملاذكرد. فقد حاولت الأطراف المتنازعة في بيزنطة أن تستعين بالقوات التركية ضد بعضها البعض مما أتاح للسلاجقة التوغل في صميم الحياة البيزنطية [1].

خ- أقدمت السلطات البيزنطية في القسطنطينية على عزل الإمبراطور رومانوس الرابع وأجلست مكانه ميخائيل السابع ابن قسطنطين العاشر دوقاس، وحاول رومانوس في غمرة هذا الصراع أن يستعين بالقوات التركية، غير أن الهزيمة لحقت به وتقرر إلقاء القبض عليه وسمل عينيه.

د- انتهج معظم الأباطرة البيزنطيين بعد رومانوس الرابع نهجه في الاستعانة بالأتراك كلما واجهتهم محنة، فعندما أعلن روبيل بايليل قائد قوات الفرنج المرتزقة العصيان على الدولة البيزنطية استعان ميخائيل السابع بالقوات التركية لقمع حركته، كما استعان بالأخوين منصور وسليمان من أقارب السلطان ألب أرسلان، للقضاء على ثورة نقفور بوتانياتسى، على أن الأخوين لم يلبثا أن تخليا عن الأمبراطور ودخلا في خدمة بوتانياتس، فأنزلهما في مدينة نيقية [2]، وعلى هذا النحو استولى الأتراك على مقاطعتي جالايتا في وسط بلاد الأناضول وفريجيا المجاورة.

ذ- لقد حقَّق ألب أرسلان هدفه، إذ كفل الحماية لجناح جيشه، وأزال خطر التقارب بين بيزنطة والفاطميين، وانصرف بعد ذلك لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر حيث قضى نحبه عام 465هـ ولم ينفذ ابنه وخليفته في الحكم، ملكشاه إلى آسيا الصغرى، غير رعاياه من الأتراك الذين اتخذوا من سهول وسط آسيا الصغرى، مراع تنتجعها الأغنام، وعهد إلى ابن عمه سليمان بن قُتلمش بأن يستولي على هذا الإقليم لصالح الأقوام التركية[3].

دروس وعبر وفوائد:

تظهر مجموعة من الفوائد والدروس والعبر من معركة ملاذكرد منها:

- أهمية الإخلاص لله والاستعداد للموت في سبيله واللجوء إليه في تحقيق انتصارات المسلمين في معاركهم الكبرى.

- دور العلماء في تثبيت القادة والجنود وتذكيرهم بالله واليوم الآخر وأثر الوعظ والتذكير في شجاعة الجنود واندفاعهم وخصوصاً عندما يكون العلماء في ميادين النزال وساحات المعارك.

- من أسباب النصر وجود القائد الخبير المحنك والجيش القوى المنظم.

- أهمية الصبر عند مواجهة الأعداء في المعارك تلك الصفة الربانية التي أمر الله بها{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**} [آل عمران: 200] فالجيوش الإسلامية التي تتحلى بهذه الصفة يحالفها نصر الله تعالى.

5- وفاة السلطان ألب أرسلان: الأسد الشجاع:

(1) المصدر نفسه ص 51.

(2) نيقية من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي.

(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 52.

في سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان ألب أرسلان ما وراء النهر وعبر نهر جيحون، وكانوا مائتي ألف فارس، فأتى بعلج يقال لـه: يوسف الخُوارزمي: كانت بيده قلعة قد ارتكب جريمة في أمر الحصن، فحمل مقيداً، فلما قرب منه أمر أن تُضرب لـه أربعة أوتاد لتشدَّ أطرافه الأربعة إليها ويعذبه ثم يقتله فقال لـه يوسف: يا مخنث، مثلي يقتل هذه القتلة؟ فاحتد السلطان، وأخذ القوس والنشابة، وقال: حلّوه من قيوده، فَحُلّ، فرماه فأخطأه، وكان مُدِلاً برميه، قلما يخطئ فيه، وكان جالساً على سريره، فنزل فعثر ووقع على وجهه، فبادره يوسف المذكور، وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، فوثب عليه فرَّاش أرمني، فضربه في رأسه بمرزبة فقتله، فانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحاً وأحضر وزيره نظام الملك وأوصى به إليه، وجعل ولده ملكشاه أبو شجاع محمد وليّ عهده[1]، ثم توفي السلطان وذلك في جمادي الآخرة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولـه أربعون سنة [2]، وترك من الأولاد ملكشاه، وإياز، وتَكِشى، وبورى برس وأرسلان أرغون وسارّة وعائشة وبنتاً أخرى [3]، وقيل : توفي عن إحدى وأربعين سنة، ودفن عند والده بالري رحمه الله تعالى [4].

ويحكى أنه قال لما عاين الموت بعينه: ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته، إلا توكلت على الله في أمري، وطلبت منه نصري، وأما في هذه النوبة، فإني أشرفت من تل عال، فرأيت عسكري في أجمل حال، فقلت : أين من لـه قدر مصارعتي، وقدرة معارضتي، وإني أصل بهذ العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت عليّ منيتي من الكمين[5]، وجاء في رواية:.. فقلت في نفسي : أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علي فعجّزني الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله وأستقيله من ذلك الخاطر، وعلى القادة والحكام أن يستشعروا بنعائم الله عليهم ويتذكروا فضله وإحسانه وينسبوا الفضل لله تعالى صاحب المنّ والعطاء والإحسان والإكرام، ولما بلغ موته أهل بغداد أقام الناس لـه العزاء وغُلقت الأسواق وأظهر الخليفة الجزع عليه وتسَلَّبت [6] ابنته الخاتون زوجة وجلست على التراب [7].

* * *

(1) شذرات الذهب (274/51).
(2) سير أعلام البنلاء(417/18),
(3) البداية والنهاية (39/16، 40).
(4) المصدر نفسه (40/16).
(5) تاريخ دولة آل سلجوق ص 48.
(6) تسلبت المرأة: أحَدث ولبست السَّلاب، وهو ثوب أسود تغطي به المحدُّ رأسها.
(7) البداية والنهاية (38/16).